البناء.. وعوامل الهدم في المجتمع الجاهلي من سورتي الأنعام والصافات مؤشرات التغيير.. والدروس

« ١ »

يقتضينا إبراز الوحدة الموضوعية فيما جاء عن بعض عوامل الهدم في المجتمع الجاهلي، في معالم الكتاب العزيز: أن نعود إلى المحور الذي هو محط الارتباط بين آيات سورتي الأنعام والصافات وغيرهما، وذلكم هو الكشف عن بعض من افتراءات المشركين، وجورهم في القسمة المزعومة بين الله الخالق البارىء سبحانه وبين شركائهم الأوثان، مضافاً إلى ذلك فرية تأنيث الملائكة، وأنهم بنات الله بزعمهم الباطل.

ففي الكلام عن عوامل الهدم المومى إليها وما يصحبها من الضياع والفوضى التي كان يئن المجتمع تحت وطأتها وهي جاثمة على صدره: جرت الإشارة إلى ما يجر ذلك من ويلات ليس أقلّها إبعاد العقل ووسائل المعرفة عن ساحة التفكير السليم، وما لذلك من انعكاس على الممارسة والسلوك، الأمر الذي يأتي ضغثاً على إبّالة.

وقد قادنا إلى الحديث عن ذلك: ما دلّت عليه الآية السادسة والثلاثون بعد المائة من سورة الأنعام وهي قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ﴾ الآية.

إذ دلت الكلمات الهاديات ـ كما سبق أن ذكرنا ـ على وقوع المشركين في لونين من ألوان الضلال والتناقض ناهيك عن الافتراء:

أولهما ـ جعلهم لله ـ وهو الخالق البارىء الرازق ـ جزءاً مما برأ من الزرع والثمار والأنعام، يشركه فيه ما يعبدون من أوثان هي شركاؤهم على حد تعبيرهم.

ثانيهما ــ جورهم في القسمة بعد هذا حيث يوجهون بأيلولة الحظ الأكبر إلى تلك الأوثان على حساب ما زعموا أنه لله سبحانه!!.

أما آيات سورة الصافَّات التي أشرنا إليها من أجل التذكير بالوحدة الموضوعية في صدر هذا الحديث: فهي ــ كما سبق ــ قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ الآيات.

والحق أن النظرة المتأنية في منحى الهداية الذي سلكته هذه الآيات لتجلية فرية المشركين في شأن الملائكة عليهم السلام والرد عليها: تُشعر بنوع من التسامي في النشدان المتبصر للحقيقة، والحوار المفعم بالتوثيق من خلال الواقع، والحكم العقلي السليم، أن لو كانت هنالك حرية الحركة للسليم من العقول!!.

الأمر الذي كان يراد ــ والله أعلم ــ للفئة المؤمنة التي تتلقى مطاعن الفتنة ومكاره الابتلاء أن تبلغه، وهي تصارع الشرك والخرافة وعقابيل الجاهلية، فيما ضربت على الإنسان والمجتمع بالأسداد.

فمن خلال الكشف عن سيئات المسار الذي يسلكه المشركون حين يفترون على الله، ثم على الحقيقة، ويقعون في التناقض المخزي وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وحين يكررون ذلك، بدعوى جعلهم نصيباً لله فيما ذرأ وبرأ من الحرث والزرع والأنعام، ثم جورهم في القسمة، إلى افترائهم المشين بجعل الملائكة إناثاً ــ بزعمهم ــ ثم الجور بجعلهم بنات لله على هذه الصورة التي تشكل وحدة الموضوع في تلكم الوقائع جميعاً...

من خلال الكشف عن هذا كله بهذا البيان الموجَّه المعجز الذي يؤدي إلى المراد بأوضح تعبير وأحكم طريقة: كان يحظى الإنسان المؤمن ــ ذكراً كان أو أنثى بوصفه واحداً من تلك الفئة القليلة المؤمنة الفريدة على وجه الأرض ــ بإعلان كلمة التوحيد والتضحية في سبيلها: وبقدر كبير من الإعداد لبناء إنسان المستقبل، ومن وراء ذلك، لبناء المجتمع الذي يكون فيه هذا الإنسان ــ ذكراً كان أو أنثى ــ لبنة قوية صالحة

تتشكل منها بُناه القوية المحكمة البناء، حيث تمتد إليه يد ذلك الإنسان الذي أسلم وجهه صادقاً لله، ورفض بإيمان وصبر وشجاعة على ساحات التصوُّر والفكر والعمل، كل أمر يتنافى مع العقيدة السليمة ومقتضياتها.

كما تمرد ـ بلا فتور ولا ملل أو سآمة ـ على تلكم الأوضاع والأعراف الجاهلية التي لم يجن منها الفرد والمجتمع إلا الصَّاب والعلقم، وإلا التخلف عن الركب الحضاري الذي يفترض أن يقوده الإنسان بإيمان ووعي، ليبني ما تهفو إليه البشرية من حضارة ذات هوية جديدة تختلف بإشراق بواعثها وأهدافها عن تلكم الحضارات القائمة يومذاك، وتقيم الوزن لكل ما هو من مرضاة الله، ونصرة الحق، والحفاظ على كرامة الإنسان وحريته بسبب: الأمر الذي يؤدي إلى الطمأنينة والراحة النفسية مع التمكين في الدنيا، والنجاة من غضب الله وعقابه، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

وما أحسبني بحاجة إلى الإلحاح على أن المؤتمنين على بناء الجيل المراد إعداده لبناء المجتمع، والإسهام في تجديد بناء الأمة، وتوجيه حركة الحياة وجهة النماء النافع المطَّرد: مطلوب منهم أن يعبِّدوا الطريق لهذا الجيل ـ ذكورِه وإناثِه ـ ويرتفعوا به إلى مستوى النهوض بالعبء ضمن الظروف المحيطة والأوضاع الإقليمية والعالمية، على الوجه الذي رسمته الهداية الربانية المتصلة بوحي السماء، وأن يكونوا على يقين لا يتزعزع بنصر الله لمن يسلكون سبيل النصر وفق سننه الحكيمة التي لا تتبدَّل، وهو سبحانه ولي هذا النصر والقادر عليه.

مؤشرات التغيير على طريق البناء ووقفة أخرى مع سورة الصافات

«٢»

أشرت فيما سلف من الحديث إلى بعض من عطاء المعلم القرآني في آيات من واحدة من السور المكية سورة «الصافات» وما كانت تحظى به الفئة المؤمنة من خلال تلكم الآيات وأمثالها، من زاد مبارك على طريق البناء الذي كانت تكتنفه ـ وهو يمثل صراع الحق مع الباطل في المجتمع ـ رواسب الجاهلية الغائصة في كثير من النفوس هنا وهناك..

إذ إن الكشف عن مسالك الهدم، وعوامل التخريب في كيان الإنسان والمجتمع ـ كما يبدو ذلك في آفاق القرآن الكريم ومعالمه ـ يحمل في طياته ما يحمل من توجيه للفئة المؤمنة ـ وهي تتصر كلمة التوحيد ـ إلى ما هو الصواب في التصور والعمل والسلوك، وإلى ما هو المعيار الحقيقي لسلامة الوجهة في بناء مجتمع تتوافر له سلامة القواعد والأسس، ولا تعوزه مقومات العطاء، وكل ما فيه القدرة الذاتية في شتى الميادين والمجالات، سواء في ذلك ما كان على صعيد التثقيف والإعداد، والتصور لرحلة البناء، وما كان على صعيد الاجتماع والسياسة والاقتصاد، وما إلى ذلك..

ولقد رأينا من قبل أنموذجاً من نماذج الهدم في المجتمع: كشفت عنه سورة «الأنعام» ولهذا النموذج الكثير من النظائر!!.

وليس بدعاً من القول أن نشير إلى أنه ليس من التكلف في شيء - والله أعلم -: أن نحكم على ما أفصحت عنه الآية السادسة والثلاثون بعد المائة من تلك السورة المكية المشار إليها، من جعل المشركين نصيباً لله فيما برأ وخلق، من زروع وثمار

وأنعام، ونصيباً لشركائهم، وما كان من العبث العابث عند تطبيق القسمة المزعومة على الشكل الذي أفصح عنه ما نقل العلماء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره...

أقول: ليس من التكلف في شيء ــ والله أعلم ــ أن نحكم على ذلك أنه من بعض الوجوه: عامل من عوامل التخلخل الاقتصادي في المجتمع، وفتح باب التحايل على الحق على مصراعيه؛ ناهيك عما يدل عليه من ضعف في التصوُّر، وإبعاد للعقل عن ساحة التفكير المجدي في مواجهة التقليد الأعمى للآباء والأجداد، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وما يحمله الانصياع لما تمليه الوثنية العمياء، والخرافة البلهاء!!.

وفي عود على بدء: تجدر الإشارة إلى أن الآيات التي ألمحنا إليها من سورة «الصافات»: هي قول الله تبارك وتعالى ــ بدءاً من الآية التاسعة والأربعين بعد المائة ــ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ومما يستوقف الناظر المتدبِّر على الوجه الذي ينبغي: ما تحمله الكلمات الهاديات من الكشف عن الزيف المتمثل في دعوى المشركين أن الملائكة إناثٌ وأنهم بنات الله.. بأنها دعوى مفتراة باطلة من كل الوجوه.

فبعد الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ جاءت مطالبتهم بالدليل، فقال جل شأنه: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

كيف حكموا على الملائكة ــ الذين هم عباد الرحمن سبحانه ــ: أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم، وهي قضية تحتاج إلى معاينة، كما قال تعالى في سورة «الزخرف»: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أرأيت إلى هذا الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد!!؟ ستكتب شهادتُهم بذلك ويُسألون عنه يوم القيامة، والويل لهم ثم الويل، حين يسألون ولا يملكون لنصرة باطلهم من نقير ولا قطمير!.

ويعد الإشارة إلى إفكهم وكذبهم الصارخ بنسبة الولد إلى الله: جاء الإنكار الشديد عليهم بقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾؛ فأي شيء يحمله جل شأنه ــ وهو القاهر فوق عباده ــ على هذا الاختيار ــ المزعوم؟!.

ثم يستثار العقل ليعمل عمله، فيقول تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أليس لكم عقول تفقهون بها وراء ما تقولون؟! إنكم تلقون الكلام جزافاً، وتُصدرون الأحكام على هذه الشاكلة وكأنكم بلا عقول، أتفعلون هذا فلا تذكَّرون. وإن كان لديكم دليل فأتوا به ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ وأنى لهم الدليل! إن قولهم هو الإفك المفترى، وليس شبهة فيما يدَّعون، ولكنه عنوان التخلف الفكري، والسير وراء الهوى والعبث الجاهلي العابث، ولو أدى ذلك إلى إهدار الطاقات، وضياع أهلية الإنسان في فكره وتصوره، وما لديه من قدرة على العطاء؛ الأمر الذي ينعكس على بنية المجتمع، ويخلِّف وراءه عنصراً مؤثراً من عناصر الهدم والتخريب.

ومما تجدر الإشارة المؤكدة إليه: أن هذا المحور الذي ينكر أشد الإنكار ما كان يحصل من السفه والادعاء الباطل وتوعُّد المشركين على ذلك: يدل أعظم الدلالة على ما أعطى المنهج الرباني من أهمية لتكوين المسلم على انتظام التفكير والقدرة على محاكمة الأمور في استخدام منهجي للعقل ووسائل المعرفة المتاحة، وسير وراء الدليل، وذلكم حجر الزاوية في بناء الإنسان المؤمن المؤهل لحمل العبء في رحلة البناء التي جاءت تطبيقاً عملياً للرسالة الخاتمة التي تنظم شؤون الدارين، صورةً عن الإخراج بهذه الرسالة من الظلمات إلى النور.

البناء.. ومؤشرات التغيير وعودة إلى سورة الأنعام

«٣»

كان خيراً على خير.. والرحلة مع الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة الأنعام، وهي المبدوءة بقول الله جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ الآية.. أن قادتنا هذه الآية الكريمة التي عرَّت موقف المشركين بجعلهم ـ كما يحلو لهم أن يجعلوا ـ لله نصيباً فيما برأ من الزروع والثمار والأنعام، ولشركائهم نصيباً، ثم جاروا في تلك القسمة الفاسدة.. أن قادتنا إلى نظائر في آيات مكيات آخر من سورة النحل والإسراء والصافات والزخرف والطور، تكشف عن واحدة من مساوىء الجاهلية في الحكم أيضاً، والقسمة الجائرة، وهي افتراؤهم بجعلهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن، إناثاً ثم زعمهم المخزي أن هؤلاء الملائكة الذين يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون عليهم السلام: بنات الله..

وكانت لنا وقفة شبه متأنية عند الذي جاء في سورة الصافات من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ الآيات.

وواضح أن هذه النقمة على المشركين فيما يصنعون بأيديهم من عوامل الهدم في المجتمع، وسلوك السبيل التي تبدد الطاقات، وتسيّر الإمكانات في قنوات الضياع والتخلف.. واضح أن هذه النقمة تحمل في وجهها الآخر خطاً من خطوط البناء للإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ والتحضير لإنشاء واقع مستنير بنور التوحيد، مشرق بأحكام العقل السليم الذي يأخذ مكانه الطبيعي في فهم نصوص الوحي، وإدراك عطائها المعصوم من الزيغ وعوامل الهدم، واقعٍ يجعل المجتمع في منجاة من

تلك المساوىء التي تغتاله من الداخل، وتدفع أبناءه إلى حيث المركب الخشن الذي يودي بهم إلى شفا جرف هارٍ، بدءاً من الفكر المنحرف عن جادة الصواب، والكلمة غير المسؤولة، والدعاوى التي يعوزها ـ أول ما يعوزها ـ الدليل على أبسط وجه ينشده العقل السليم. خصوصاً إذا لاحظنا أن كثيراً من خصال الخير التي كانت موجودة عند أولئك الفئام من الناس الذين يعيشون في المجتمع الجاهلي: ينحسر ظلُّها تحت وطأة تلكم العوامل التي يدور حولها حديث البناء سلباً وإيجاباً.

وحين ينجو المجتمع من تلك العوامل التي تحمل ما تحمل من الآفات، ويتوافر له المورد البشري الذي يأخذ مكانه الطبيعي في حركة الحياة وفق منهج الله، حيث العقيدة الصحيحة والتصور السليم والفكر المنظّم الذي يضع العقل والمعرفة في مكانهما اللائق ويقيم للحجة النيرة الوزن المناسب.. حين ينجو المجتمع من هذه العوامل المثقلة بتلكم الآفات: حدث ولا حرج عما يكون لذلك من الانعكاسات الطيبة على شتى مجالاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وعما يكون له من أهلية الإفادة من خيرات تفضل الله بها عليه، وقابلية لاستمرار النماء والعطاء.

وعلى هذا السنن من الرحلة مع آيات كريمات تكشف عن عوامل الهدم في المجتمع الجاهلي. وتبصّر بما يرسم التنديد بها والتوعد عليها من خطوط نيرة على صعيد بناء الإنسان والتحضير للمجتمع القدوة..

على هذا السنن، نعود إلى آيات سورة الأنعام التي حملتنا إلى تلك الساحة المباركة لنقرأ في الآية السابعة والثلاثين بعد المائة قول الله جلّ وعز: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

وإلى أن نلتقي على متابعة لعطاء المعلم القرآني في هذا الأفق المشرق بالإرشاد إلى الطريق التي هي أقوم، حيث تشير الآية المذكورة بأصبع الاتهام إلى هذا الصنيع من قتل الأولاد لأسباب تنتمي إلى غشاوة الجاهلية أيَّما انتماء: أود أن أؤكد أن

المزيد من اصطحاب هذه الزمرة التي نحوِّم حولها من تلكم الآيات التي نقع عليها في سورة الأنعام وعلى نظائرها في سور أُخر: يشعر القارىء المتدبر بكثير الكثير من عناية الله بعباده المؤمنين، وبخاصة تلك الفئة التي عاصرت الأحداث أو كانت قريبة العهد بالحديث عنها، وعرفت الجاهلية، وعناصر الهدم، والتعفية على كثير من خصال الخير، تعفيةً أسهمت أيَّما إسهام فيما كشف عنه القرآن من تلك الأوضار.

وإنما كانت هذه العناية ــ والله أعلم ــ لأن الفئة المؤمنة كانت هي المرشحة يومذاك في ضوء الرسالة المحمدية: للتبصر الحضاري المتسق مع إنسانية الإنسان، وما ينبغي أن ينتهجه في تعامله مع الكون والحياة.. وأعني به التبصر فيما يعاني إنسان الجاهلية ومجتمع الجاهلية من ويلات التخلف، والضياع، وإعداد العدة من داخل النفس ومن خارجها، لحمل العبء الجديد، عبءِ الأخذ بأسباب التحضير لبناء مجتمع جديد تقوده كلمة التوحيد، وتنظم شؤونه بعقل وحكمة وتساوق مع سنن الله: شرعة الله السمحة المباركة التي تشرق بتلكم المقاصد التي ترعى مصلحة الفرد والمجتمع والأمة على خير وجه، وتوجه إلى وضع الأمور مواضعها، وتسيير الطاقات في جوٍّ من الحرية وتحقيق كرامة الإنسان في قنواتها الطبيعية المنتجة، الأمر الذي يشعر بتوجه حضاري له تميُّزه في حياة الإنسان.

والمطلوب اليوم والمسلمون ــ على ما هم فيه من العنت والمصاعب ــ هم المرشحون في الحقيقة لمداواة ما يعتري البشرية من أمراض، وهي رسالة شرفتهم بها رسالة السماء، ونقطة البدء كائنة ببناء الإنسان والمجتمع على الوجه المبرء من الدخَل والزيف.. المطلوب اليوم: وعي إيماني عميق لتلكم المقولة التي هي واحدة من آفاق المنهج الرباني.

وإنها لخطوة على طريق تنتهي بالأمة ــ بعون الله ــ إلى أن تكون صاحبة الكلمة في تقرير المصير الذي تتطلع إليه البشرية التي تعاني ما تعاني من مشكلات لم يستطع حلها ما أنجز العلم التقني من تقدم مذهل، لأن الإنسانية بحاجة إلى شيء لا تجده إلا في الإسلام ولله الأمر من قبلُ ومن بعد.

البناء.. ووقفة مع الآية السابعة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام

« ٤ »

كما صحبنا المعلم القرآني في ضيائه وعطائه من خلال الآية السادسة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي الآية التي كشفت عن سقوط المشركين ضحايا لتزيين الشياطين والانصياع للهوى والتقليد الأعمى، فجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، وتلا ذلك ما تلاه من العبث في القسمة المزعومة والجور فيها. تقتضينا متابعة الآيات التي تدور حول هذا المحور في السورة نفسها: أن نصحبه كذلك في الآية التي تلي، لنرى واحدة أخرى من مساوىء الجاهلية التي تدل على أن كثيراً من الناس يومذاك شرعوا يسلكون طريقاً تتجافى مع إنسانية الإنسان وتقف على النقيض من سنة الله في العاطفة بين الوالد والولد، والتي تعتبر بحق من أبرز العوامل التي تضعف بنيتي المجتمع الاقتصادية والاجتماعية الأمر الذي يسهم في تقويضه ويحول دونه ودون العطاء على الشكل المطلوب. والآية الكريمة التي نعنيها والتي أشرنا إليها في حلقة الأمس هي قول الله جل شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

يبين الله سبحانه وتعالى أنه كما زينت الشياطين لعبدة الأوثان أن يجعلوا لله مما خلق من الزرع والثمار والأنعام نصيباً، كذلك زين لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم، زينوا لهم قتل هؤلاء الأولاد من الإملاق أو خشيةَ الإملاق. وقد جاء النهي

عن الحالتين كلتيهما؟ ففي سورة الأنعام نقرأ قول الله جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ونقرأ في سورة الإسراء قوله سبحانه:﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد زينوا لهم أن يئدوا البنات بخاصة ـ أيضاً ـ خشية العار. وهذا كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ألا ساء ما يحكمون، فيفعلون ذلك في الدنيا متجاوزين كل حد من حدود الإنسانية في أنفسهم، جالبين المساءة والأذى إلى الأسرة والمجتمع، وسوء العاقبة ينتظرهم يوم القيامة، وذلك ما أنذر به قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾. ترى بماذا ستجيب وهي المجني عليها من أقرب الناس إليها وهو والدها، وكان يغنيه عن ذلك أن يحسن تربيتها ويسهم في تجفيف مستنقعات الأذى من المجتمع، والالتزام بضوابط تحول دون التفلت الذي كان قائماً في علاقة الذكر بالأنثى يومذاك، لا أن تفتّح أبواب ذاك التفلُّت على مصاريعها ثم توأد البنت الطفلة خشية العار حيث يدسها أبوها في التراب.

هكذا زيّن للمشركين شركاؤهم الشياطين قتل أولادهم ليردوهم فيهلكوهم وليلبسوا عليهم دينهم ـ ليخلطوا عليهم دينهم ـ فاحتياطاً لعدم الوقوع في الإنفاق الكثير يقعون فيما هو أشد وأنكى وأبلغ في الأذى الاجتماعي والاقتصادي فيقتلون الأولاد الذين كان من الممكن أن يكون الواحد منهم طاقة اقتصادية نافعة تسهم في انتشال الأسرة من الوهدة، كما تسهم في رخاء المجتمع، وانعكاس ذلك على البنية الاجتماعية لا ينكره إلا مكابر. ثم إن دواء التخلف الاقتصادي: ليس قتل الأولاد ولكنه إتيان الأمور من مداخلها الطبيعية.

وخلطوا عليهم دينهم أيضاً بأن زينوا لهم وأد البنات خشية العار فأوقعوهم في تلكم الطامّة التي لا يقرها عقل سليم ولا ترضى بها عاطفة أبوية مجردة، فالغيرة على العرض: مقتضاها ـ كما ذكرنا آنفاً ـ: حسن التربية والإعداد والقضاء على منافذ الشر في المجتمع، وليس فيما يصنعه من خضعوا لتزيين الشياطين وتجاوزوا منطقة الإحساس الأبوي بكاملها حتى أصبحوا وكأنهم خشب مسنّدة.

أما بعد: فأي عنصر من عناصر الهدم في المجتمع أسوأ من هذا الذي زينه لكثير من المشركين شركاؤهم، حيث يُقدّم الواحد منهم على قتل ولده لسبب موهوم.. ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

ولقد خاض من شهدوا التنزيل معركة التغيير، وتجاوزوا هذا الواقع السيء، وأنشأوا واقعاً جديداً في ظل مجتمع برَّأته يد الإسلام الحانية من تلكم العوامل الهدامة المزعومة واستدركتها ـ والحمد لله ـ بعوامل العقيدة والتماسك، فكان بعد الهجرة ذلك المجتمع القادر على العطاء المؤهل في الميادين كلها للنماء وسبحان من أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا، وهو المحمود على كل حال.

البناء في مواجهة إذاية الإنسان والمجتمع
ووقفة أخرى مع سورة الأنعام

« ٥ »

هذا موعد اصطحابنا لواحد من المعالم القرآنية في متابعة لرحلة قصيرة نغذ فيها السير مع آيات مباركات من سورة الأنعام ـ وكل آي الكتاب مبارك ميمون ـ حيث الكشف عن عدد من عوامل الهدم في المجتمع الجاهلي، وما يحمل ذلك من توجيه الفئة المؤمنة إلى بناء الإنسان، ومن وراء ذلك إلى بناء المجتمع كيف يجب أن يكون بالعمل على أن تُجتث تلكم العوامل الهدامة من جذورها على هدي الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» الكلمة التي شاء الله أن تتسع لميادين الحياة كلها، تبنيها على الخير وتغذوها دائماً بما ينمي القدرة على العطاء المثمر المجدي في إطار من الشمول والتكامل تبدو ملامحهما في كل مجال وعلى كل صعيد.

وقد ألقينا عصا التسيار عند الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة من السورة المشار إليها سورة الأنعام ذلكم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

لا يذكرون اسم الله عليها. تشير الآية الكريمة إلى صورة أخرى من صور الجاهلية يمثلها العدوان على المجتمع في بنيته الاجتماعية والاقتصادية، والعدوان على العقل في الحيلولة دونه ودون التفكير المنظم والبعد عن التناقض. ينتظمها مع ما سبقها مما أشرنا إليه فيما سبق من القول ما كان يتخبط به المشركون من ظلام

الوثنية وشر الخرافة وتسويل الشياطين وهي في الحقيقة صورة ذات ثلاث شعب: فالأولى التي لا يتسع المقام لذكر غيرها الآن: يعلن عنها قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

هكذا يضيِّق المشركون واسعاً، فيجعلون من بعض الأنعام والزروع والثمار حبساً على آلهتهم، ينتفع بها خدام الأصنام دون غيرهم، لذا فهي حلال للآلهة ــ على زعمهم ــ حرام على الآخرين.

من أجل هذا لا يطعمها إلا من يشاؤون وفق ما سولت لهم أنفسهم والشياطين. قال السدي: (﴿لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يقولون حرام أن يطعمها إلا من شئنا...) رواه الطبري.

وهذا الخلل الذي نشهده في هذا التصرف كما نطقت الآية الكريمة، والذي ينعكس انعكاساً مباشراً على كل من البُنيتين الاجتماعية والاقتصادية، بدءاً من الأسرة؛ لأن أفرادها قد يحرمون من الرزق الذي يتحرك بين أيديهم وعلى مشهد منهم؛ لأنه حَجْر على الآلهة، فضلاً عن غير أولئك الأفراد من أبناء المجتمع، تعاوناً وتكافلاً...

هذا الخلل الذي يشير في الوقت نفسه إلى إهمال العقل عند التصرف: قد ندّد به القرآن الكريم في أكثر من موطن، فمع الذي يرى في سورة «الأنعام»: نقرأ في الآية التاسعة والخمسين من سورة «يونس» ــ وهي سورة مكية أيضاً ــ قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ثم توعدهم على هذا الافتراء بما يكون لهم من سوء العاقبة يوم القيامة، فقال تعالى في الآية التي تلت: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ولكم يكون صنيعنا عنوان استقامة على الجادة تربية وإعداداً وتثقيفاً: إذا نحن قرأنا وقائع التعرية لمواقف المشركين الهدَّامة وبإمعان، وتبيناَّ من خلالها ــ ونحن نتطلع إلى التجديد في أساليب التحويل والبناء ــ أيَّ مرتقى كانت ترتحل إليه الفئة المؤمنة ــ التي قوام حركة العاملين فيها: الإنسان الحضاري ــ: لتقيم البنيان السليم على هدي ما أعلن القرآن الكريم ــ وهو كلام رب العالمين ــ من التنديد بعوامل الهدم لمقومات الإنسان والعبث الفوضوي بشؤون المجتمع الذي يعيش فيه هذا الإنسان، ومن اجتثاث الأذى من داخل النفس، ومن المجتمع على حد سواء..

أقول: ويزداد صنيعنا قوةً: إذا امتد الأمر بمنهجية، ووضوح رؤيةٍ إلى العمل والمزاولة اليومية لشؤون الحياة ضمن كل ما يكون من ظروف وملابسات والله الهادي إلى سواء السبيل.

البناء... ومعالجة الهدم وسورة يونس

« ٦ »

كانت لنا في كلمات قريبات محاولة تهدف إلى التعرف على صورة أخرى من صور الهدم في المجتمع الجاهلي، حيث إلحاقُ الأذى بكل من البنيتين الاجتماعية والاقتصادية فيه، والخضوعُ للتقليد الأعمى وتسويل الشياطينَ بدلاً من الاحتكام إلى العقل السليم وما تقتضيه دعوى المشركين إيمانهم بالله. والصورة المشار إليها هي ما جاء بشأن هؤلاء المشركين في الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة من سورة مكية هي سورة الأنعام. من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقد هدانا المعلم القرآني إلى أن هذه الصورة فيما تمثل من عوامل التخلخل في بنية الفرد والمجتمع، ذات شعب ثلاث: أولاها ما سوّل الشيطان لأولئك المشركين من جعل زمرة من الأنعام والزروع والثمار التي رزقهم الله بها حِجراً حراماً لا يطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم وهم الآلهة حيث ينتفع بها سدنة الأصنام كما في بعض الروايات، ذلكم ما جاء في مستهل الآية من قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾. فهم يمنعون الحقوق أصحابها ويحدثون بذلك ما يحدثون من خلل اجتماعي واقتصادي، ويقعون في التناقض حين يزعمون الإيمان بالله ويفترون على الله الكذب، فيشرّعون من الأحكام ما لم يأذن به سبحانه. وفي الوقت نفسه يجفون العقل السليم ويحولون دونه ودون أن يعمل عمله في صياغة التصرف المطلوب الذي لا ينأى عن ساحة الإيمان بالله، ولا يصوِّب إلى المجتمع سهام الأذية من هنا وهناك.

والواقع أن سوء الصنيع المشار إليه من المشركين لم يقتصر التنديد به على ما نشهد في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ بل كان ذلك ـ كما أشرنا بالأمس ـ في مواطن عدة من كتاب الله عز وجل، فمع الذي نجد هنا، نقرأ في سورة مكية أخرى هي سورة يونس قول الله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ الرزق من عند الله، وما دام الأمر كذلك: فالمفروض أن يُلتزم في التحليل والتحريم ما يأذن به الله الرازق سبحانه. ولكن المشركين جعلوا من هذا الرزق حلالاً وحراماً حسب أهوائهم وما سولت لهم شياطينهم، ولذلك جاء توبيخهم والإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ الواقع أن الله لم يأذن لهم بهذا، وهم فيما يحكمون بالحل أو الحرمة مفترون على الله، فمن أين لهم هذا التقسيم الذي قسموه في التحليل والتحريم فأساءوا إلى الفرد والجماعة وعرضوا بنيان المجتمع للتخلخل الاجتماعي والاقتصادي، وبعد ذلك كله يسندون تلك الأحكام المفتراة إلى الله عز وجل.

البناء.. وإثارة بوادر التغيير وسورة المائدة

«٧»

في الطريق إلى تبيّن بعض من الملامح التي اتسم بها المجتمع الجاهلي، والتي كانت لها ــ كما رأينا في سورة الأنعام وغيرها ــ صور تلحق الأذى بالفرد وبالمجتمع نفسه، لا ينجو من ذلك واحدة من النواحي الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية.. في الطريق إلى ذلك صحبنا مطلع الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله جل ثناؤه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾. وقد قادتنا الكلمات الهاديات بشأن الإنكار على المشركين قولهم: (هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) إلى ما جاء في الآية التاسعة والخمسين من سورة يونس من قوله سبحان: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وتلا هذا التنديد بإعطائهم أنفسهم حق التحليل والتحريم والافتراء بأن صنيعهم من عند الله... تلا ذلك ما يرى من الوعيد الشديد في قوله جل شأنه: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ إن ما يقتضيه شكر المنعم المتفضل سبحانه أن تستخدم نعمه وفق ما يرضيه جل شأنه، ولكن المشركين بدلاً من الشكر في تحقيق العدالة بما يعود على المجتمع بالنماء والخير، بدءاً من الأسرة التي هي أول لبنة من لبناته.. بدلاً من ذلك شرعوا من عند أنفسهم أحكاماً جائرة في تحليل الاستمتاع ببعض الرزق من الأنعام وتحريمه، فكان أن كشف الله سوء صنيعهم وتوعدهم عليه بسوء العاقبة يوم الدين.

وقد كان لهذا المسلك في المنهج الرباني، الأثر البالغ في تحرير الفئة المؤمنة فكراً وتصوراً من تلك المساوىء الجاهلية، الأمر الذي جعل من ذلك محضناً من محاضن التحضير للبناء والقدرة ـ بإذن الله ـ على تجاوز الواقع الجاهلي وإنشاء واقع جديد ينبثق عنه مجتمع ليس من تلكم الأوضار العابثة التي خلفتها الوثنية ومجافاةُ الفطرة والعقل: في قليل ولا كثير.

ولعل من الخير ونحن نصحب المعلم القرآني في تجليته لأبعاد تلك الشعبة من شعب الصورة المشار إليها في الآية التي نحن بصددها من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ لعل من الخير أن ننتقل إلى سورة مدنية هي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم وهي سورة المائدة، لنرى لوناً آخر من ألوان الإنكار والتقريع للمشركين على صنيعهم وافترائهم على الله في التحريم والتحليل من عند أنفسهم، وكما سولت لهم شياطينهم. ذلكم قوله تعالى في الآية الثانية بعد المائة: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ فالإشارة واضحة إلى مُسَمَّيات من الماشية أعطوها تلك الأسماء، وشرعوا لها أحكاماً في الحل والحرمة، ولا يخفى ما لذلك من انعكاس سيء على البنيتين الاجتماعية والاقتصادية، ناهيك عن دلالته الصارخة على إهمال العقل والكسل الفكري الملحوظ. فالبحيرة: هي التي يُمنَعُ دَرُّها من أجل الطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يُحمل عليها شيء، والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى، كانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكَرٌ، أما الحام: فهو فحل الإبل إذا قام بمهمته الغريزية في بقاء النوع تركوه للطواغيت، وأعفوه عن الحمل فلا يحمل عليه شيء، وسموه الحامي.

ألا وإن الحرص على بنيان سليم للإنسان والمجتمع: يجعل الإفادة من هذه التعرية لعوامل الضعف في المجتمع الجاهلي: ضرورة لا معدى عنها؛ فما أكثر ما تضع جاهلية اليوم من العراقيل للحيلولة دون تجاوز للواقع المتخلف، وإنشاء واقع تحكمه شريعة الله، وينأى به البُناة المخلصون عن مسالك التخلخل والتقليد الأعمى لمن تقطَّع ما بينهم وبين الهداية من أسباب.

الشعبة الثانية من شعب الهرم
وإثارة بوادر التغيير في وقفات مع آيات

«٨»

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول على شعبة من شعب ثلاث لصورة من صور المسلك الجاهلي وصنيع المشركين الظالم بشأن زمرة من الأنعام والزروع والثمار، حيث التحليل والتحريم وفق التقليد الأعمى وتسويلات الشياطين، ولك فيما نطق به مفتتح الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

والشعبة الأولى التي كنا بصددها من قريب هي ما دل عليه قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ ونحن على موعد مع اصطحاب المعلم القرآني الكريم للإلمام بما تستكمل معه الصورة الجاهلية من صنيع المشركين من الإضرار بالمجتمع وترسيخ عوامل الهدم في بناه الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

فبعد قول الله تعالى في شأن المشركين وفعالهم المشار إليها: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾، جاء قوله جل شأنه في الكشف عن قبيحة أخرى: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وهي الشعبة الثانية من الصورة المومى إليها آنفاً. وهذه الأنعام التي حرمت ظهورها فلا يجوز لأحد ركوبها هي ـ كما قال السدي ـ البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ـ فكل ما أطلقوا عليه واحداً من هذه الأسماء، يمتنع ركوبه والانتفاع به، وقد أشرنا فيما سلف إلى ما جاء في سورة المائدة من إنكار الله على المشركين هذه التسميات وما ترتب عليها، فالله تعالى لم يسمِّ شيئاً من ذلك ولكنه الافتراء والكذب على الله من قبل المشركين.

ذلك قول الله تبارك وتعالى في الآية الثالثة بعد المئة من السورة المشار إليها: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾. والجعل هنا هو التسمية فالله تعالى ما جعل ـ ما سمى ـ من واحد من هذه المسميات التي اتصفت بصفات جعلها على زعمهم محرمة الركوب على الناس والانتفاع بها.

ونحن واجدون أنه بعد أن ختمت الآية ببيان أن صنيع المشركين محض افتراء وخبال في العقل، جاءت الآية التي تلي منددة بإعراضهم عن الحق وإصرارهم على التقليد الأعمى للآباء والأجداد ولو كانوا لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون. ذلكم قوله سبحانه في الآية التي تلي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

إن القرآن الكريم كما لم يرض لهم عدوانهم في التحليل والتحريم وإساءتهم للمجتمع بذلك: كشف عن سبب خطير من أسباب هذا الانحراف الذي يحول دون ذلك المجتمع ودون قدرته على العطاء، ونمائه الاقتصادي والاجتماعي، ذلكم هو التقليد الأعمى للآباء والأجداد ولو كان هؤلاء المقلَّدون على غير علم ولا هدى ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

وهكذا وُجِّه المؤمنون البُناة إلى كل ما فيه تحرير الإنسان من الوثنية وذيولها، والخرافة ومساربها، والتقليد الأعمى ومداخله ومخارجه وبذلك كانوا ـ بعون الله ـ أقدر على بناء مجتمع لا يعوزه التماسك والإحكام. ولا يشكو هزالاً في ميدان من الميادين. وكل أولئك أمانة في الأعناق تدعو إلى التزام المنهج الرباني فيما يتطلع إليه المصلحون من بناء يحفظ على الإنسان وجوده وحريته وكرامته. ويتيح له فرصة العمل والإنجاز، وفي إقامة المجتمع الذي تقوده كلمة الله ويفيد من كل ما وصل إليه العلم والتجربة، مع الحفاظ على سلامة الانتماء الصادق إلى خير أمة أخرجت للناس وأصبحت مؤتمنة على الشهادة يوم القيامة على الناس.

البناء.. وشعبة الهدم الثالثة كما دلت عليها سورة الأنعام

« ٩ »

في متابعة لاصطحاب تلكم الآيات من سورة الأنعام التي أشرنا إليها من قريب بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المئة وعطاء المعلم القرآني فيها بشأن حكم القرآن على بعض من تصرفات المشركين المؤذية للفرد والجماعة، والمعطلة لكثير من الطاقات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.. في متابعة لهذا الاصطحاب الكريم، وحرصاً على تبيُّن ما يبدو لذلك الحكم القرآني بشأن تلك التصرفات الهدامة، من انعكاس على مسيرة البناء الخيِّرة والتحضير لإنشاء المجتمع المسلم الذي يتسامى عن أوضار الجاهلية في بنيانه، ويتخذ ما يتخذ من مسالك الهدى وتنمية التعاون المثمر بين أبنائه.. نعود اليوم إلى الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة وهي قول الله تبارك أسماؤه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ولقد عرضنا فيما سلف من القول لشعبتين من هذه الصورة الجاهلية التي تكشف عنها الآية الكريمة هما: جعل المشركين زمرة من الأنعام والزروع والثمار حِجراً حراماً لايطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم؛ فهي للآلهة يفيد منها سدنة الأصنام، وجعلُهم ــ كذلك ــ زمرة من الأنعام وضعوا لها أسماء معينة هي: البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.. محرمةَ الركوب والانتفاع.

وذلك مادلّ عليه من الآية الكريمة قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾.

ونحن اليوم على موعد مع قوله سبحانه: ﴿وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ وهو ما يدل على الشعبة الثالثة من الصورة الملمح إليها، صورة العدوان على المجتمع، إهداراً لقدر لا بأس به من الطاقة الاقتصادية، وتجاوزاً على الحقوق، وترسيخاً لإبعاد العقل عن أن ينير السبيل، كيما تكون تصرفات أولئك الجاهليين على قدر من الاستقامة في النظرة إلى الإنسان، وفي البعد عن المواقف التي تتناقض مع دعواهم الإيمان بالله.

وتلك الشعبة تتمثل في أنه كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها، ولا في شيء من شأنها ـ كما قال السدي، لا إن ركبوا ولا إن حملوا ولا إن حجوا ولا إن عملوا شيئاً، وعند الذبح يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله، وقيل: لا يحجون عليها ولا يركبونها.

هكذا تعطينا تلكم الشعب الثلاث للصورة المعنيَّة سالفة الذكر ما يكشف عن الهوة التي تردى فيها أولئك الذين عبدوا الأوثان من دون الله فعطلوا عقولهم وخضعوا لسلطان الهوى والخرافة والتقليد الأعمى.. وما يؤكد لدى الناظر المستبصر في الآية الكريمة: أن المحاصرة الفكرية ـ على الأقل ـ لتلك الانحرافات التي جرَّت على المجتمع ما جرت من ألوان الضعف الاجتماعي والهزال الاقتصادي، ناهيك عن التخلف الفكري... أن هذه المحاصرة كانت من أقوى الحوافز التي جعلت الفئة المؤمنة ثابتة الخُطا في رحلة البناء التي التمع ضياؤها منذ العهد المكي. وإذا كان من المسلمات لدى أهل الإنصاف أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها: فليكن أولئك الذين تثقل كواهلهم هموم الأمة، على بصيرة من أمرهم لا يعجزون عن المرتقى الذي رسمه المنهج الرباني وصنع أسلافنا على هديه التاريخ، يذكرون أبداً قول الله جلّت حكمته: ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

التصور الصحيح.. في البناء والآثار الطيبة لنقض مسالك الجاهلية

« ١٠ »

ما نزال مع الحديث عن موقف التنزيل الحكيم من عوامل الهدم التي كان يصنعها تصرف المشركين فيما رزقهم الله من أنعام وزروع وثمار، تحليلاً وتحريماً لم يأذن بهما الله يمنعان أصحاب الحقوق حقوقهم، ويتسببان في تعريض البنى الاجتماعية والاقتصادية للمتاعب، ويكشفان في الوقت نفسه عن مدى التناقض في إدارة الشؤون اليومية المتجددة، وكيف أن العقول مضروب عليها بالأسداد.

وهذا الأمر بكلياته وجزئياته يقودنا على ساحة الاجتماع والاقتصاد والفكر إلى متابعة المعلم القرآني في توجيهه مسيرة البناء التي بدأت خطواتها منذ العهد المكي بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، فالتنديد بأي عامل من عوامل الهدم، وإثارة الهمم للقضاء عليه، إسهام في تحديد المعالم لتلك المسيرة الخيّرة؛ ما الذي يجب أن يكون وما الذي ينبغي أن يجتنب.

كل أولئك يهدينا إلى آيات صحبنا بعضها في حلقات سلفت وكان منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

وآخرما سعدنا بصحبته من تلك السورة المباركة قوله جل ذكره بعد ذلك: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقد عرضنا قريباً لتلك المساءة الجاهلية التي كشف عنها قوله تعالى: ﴿وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ وهي الشعبة الثالثة لواحدة من صور الهدم التي دلت عليها الآية الكريمة من صنيع المشركين، كيما يتبين المؤمنون طريقهم، ويتنبهوا إلى الركام الذي عليهم أن يزيحوه ليرفعوا قواعد البناء السليم، ويوجهوا الموارد البشرية والاقتصادية وجهتها المنتجة المثمرة، ويتيحوا للعقل وموارد المعرفة كلها أن تعمل عملها على هدي الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقد كانت الكلمة القرآنية صريحة في أن المشركين يفعلون ما يفعلون من المؤذيات لأنفسهم وللجميع، ومن ذلك أنَّ طائفة من الإبل لا يذكرون اسم الله عليها عند الركوب، أو الحج، أو الذبح، بل يذكرون أسماء الأصنام، ويفعلون ذلك لأنهم يزعمون أن ما يجنونه هو حكم الله وذلك محض افتراء. ﴿وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ ولذلك ختمت الآية بهذا الوعيد الشديد الذي نجده في قوله جل شأنه وهو الغالب على أمره: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إن الله لم يأذن بصنيع المشركين فيما أحلوا وفيما حرموا من الأنعام والزروع والثمار وفيما خصوا كل طائفة من تلك الأنعام بسمات هي من حكم الأهواء وتسويلات الشياطين، لم يأذن بذلك ولا رضيه منهم سبحانه وليس ذلك من دين الله وشرعه في شيء، ولذلك سيجزيهم بما كانوا يفترون عليه ويسندون إليه، وانظر إلي طي الزمن أمام قدرة الله تعالى فالسين للمستقبل القريب والمقصود شدة الوعيد.

ألا وإن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الردِّ: أمانة في الأعناق، ومسؤولية لا يغني امرءاً مهما كان شأنه ودعاواه، تجاهُلُها، والموقف المناهض لهذه المسؤولية له آثاره التي لا تخفى في الدنيا ضعفاً وتمزقاً يصرخ الواقع بهما أما

في الآخرة: فشر عاقبة وأسوأ مصير، ومعالم الكتاب العزيز ليست كلمات على ساحة الوعظ الأخلاقي متروكة لاختيار المكلَّف إن شاء عمل بها وإن شاء أعرض، ولكنها منهج الخالق الذي على المكلفين أن يلتزموه ويعملوا به، وبذلك يظفرون بعز الدنيا وحسن العاقبة يوم الدين.

البناء.. وثمرات المحاصرة للتصرفات الجاهلية وسورة الأنعام

«١١»

نحن على موعد مع متابعة النظر الذي تتسع له دقائقنا هنا في تلك الطاقة من الآيات الكريمات ـ التي تهدم لوناً من ألوان الوضع الجاهلي على صعيد البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ـ في سورة الأنعام والتي تسهم في البناء السليم من حيث التحضير للمجتمع الأمثل في قادمات الأيام. وقد وضعتنا الرحلة على خاتمة الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة منها. والآيات التي نعني: هي قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وإذا كان التنديد بهذه المساوىء الجاهلية، قد أظفر المؤمنين بتبين الطريق إليها في رحلة البناء، ودلّهم على ما يجب أن يتوافر لبناء الإنسان والمجتمع القادر على العطاء من شرائط، لعل من أهمها إبعاد الإنسان والمجتمع عن كل ما هو من تلك الأوضاع الجاهلية المستنكرة بسبب.

أقول: إذا كان التنديد بتلك المساوىء قد أعطى ما أعطى للمؤمنين يومذاك فإن دلالته المنهجية على صعيد التحديد لعوامل الهدم، وما يجب أن يكون عليه البناء: قائمةٌ على طريق المؤمنين حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الأمر يتحرك أول ما يتحرك على محور العقيدة التي هي الأصل فيما يراد من بناء الإنسان والمجتمع، والسلوك بالأمة طرائق الوجود الذاتي الذي أدى التزحزح عنه إلى ما أدى من المتاعب التي يضج بها واقع اليوم.

وها نحن أولاء نتابع النظر فيما جاء بعد الآيات التي ذكرنا لنقرأ قول الله تعالى في الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

وإلى أن نلتقي على نظرة عجلى لا يتسع الزمن لأكثر منها في هذا المقام، أود الإشارة إلى أن هذه الجنايات على الفرد في فكره وسلوكه وعلى المجتمع في ميادينه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.. هي صورة من الجاهلية العَمِيَّة يومئذ.

والمنهج الرباني في الكشف عنها ومحاصرتها وبيان عدوانها على عقيدة التوحيد وعلى الإنسان: يهدينا إلى ما يجب أن يكون عليه التخطيط في مواجهة التحديات الجاهلية في هذا العصر، وهي تحديات يعاني منها الإنسان المسلم والمجتمع المسلم بل والأمة المسلمة أيضاً، والخطوة الراسخة الثابتة على طريق المواجهة تبدأ من وعي المشكلة في ظلِّ العقيدة، والأخذ بالأسباب لمواجهتها، كيما يكون البناء سليماً لا تتهدده عوامل الأذى من هنا وهنا والله المستعان وعليه التُكلان.

سورة الأنعام... وصورة من النظر الجاهلي إلى المرأة في مرحلة التحضير للبناء.

«١٢»

أن يُعنَى القرآن في العهد المكي، والصراع بين الفئة القليلة المؤمنة وبين المشركين العتاة على أشده، ومحور الصراع اقتحام معاقل الوثنية في الإنسان وتحويله إلى التوحيد.. أن يُعنى القرآن في هذا الوقت المبكر من نزول الوحي بأمر المجتمع والكشف عن فساد تلكم التصرفات الجاهلية التي تسيء إلى بنيانه اقتصادياً واجتماعياً، كما ترسخ التخلف الفكري كذلك: قضية تستوقف الناظر المتأمل، وتدل أوضح الدلالة على أن هذا الكتاب الكريم من عند الله، وأن الرسالة التي هي مضموناته رسالة شاملة لبناء الإنسان وبناء المجتمع والأمة، وتنمية الطاقات والفاعليات، وتسييرها في قنوات مأمونة تعود على الفرد والجماعة بالخير والنماء.. كل أولئك في ظل عقيدة الفطرة عقيدة التوحيد التي تكرم الإنسان وتدعو إلى إعطاء العقل مكانته في فهم الوحي، وإضاءة طريقه في أن يكون على الجادة، متسق الخطا بعيداً عن التناقض في تصرفاته وما يصدر من أحكام.

أقول هذا ونحن على موعد نتابع من خلاله رحلتنا مع آيات من سورة الأنعام كانت أولاها الآية السادسة والثلاثين بعد المئة: تكشف عن مواجهة مبكرة لصُوَرٍ جاهلية تبدو بالغة الإساءة إلى الفرد والمجتمع ـ كما أشرنا إلى ذلك في كلمات سلفت من قريب ـ وقد ألقينا عصا التسيار عند الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة وهي قول الله جل وعز: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

أرأيتم كيف كان يتخبط أولئك الذين تقطَّع ما بينهم وبين هداية الله من أسباب، فأعرضوا عن توحيد الله، وتدحرجوا في مستنقعات الوثنية والخرافة، فكان هذا التيه الفكري الذي أثمر هذا الموقف المخزي من المرأة بعامة ومن الأزواج بخاصة.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ قال العوفي ـ كما روى الطبري ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك. وهذا المروي عن ابن عباس قاله السدي أيضاً، وقال الشعبي: البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء، وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وفي رواية للطبري أيضاً عن ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد أجنَّة البحائر والسوائب: فما ولد منها حياً فهو خالص للرجال دون النساء، وما ولد منها ميتاً أكله الرجال والنساء جميعاً: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ ترى: أي سند لهؤلاء المشركين من دين أو عقل استندوا إليه حين فرقوا بين الرجال والنساء في هذا الأمر؛ ما ولد حياً لا يأكله إلا الرجال، وما ولد ميتاً جاز أن يشترك في أكله النساء!! ولبن بعض الماشية أيضاً خاص للذكور دون الإناث؛ إنها الجاهلية التي تجاوزت الحدود التي أقام الله عليها بناء الإنسان، فالمرأة والرجل يرتدان ـ كما قرر القرآن ـ إلى أصل واحد، وأهلية التكليف قائمة عند المرأة كما هي قائمة عند الرجل؛ وبناءً على ذلك كان ما نرى من التعرية لهذا المسلك الجاهلي المجافي لحكمة الخلق. الممتهن للمرأة في إنسانيتها، والاستنكار لتلك النظرة الهابطة لها، النظرة التي لا تستثني في سوئها لا الأم ولا الزوجة ولا البنت.. الخ.

ألا ليت أبناء الجيل المعدّ للبناء وبناته، يعيدون قراءة هذه المواقف القرآنية من العدوان على الإنسان وعلى المرأة بخاصة، كيما يكونوا أسلم تصوراً وأكثر إنصافاً، وأقدر على مواجهة التحديات على ساحة الفكر والتطبيق.

مرة أخرى.. وقفة مع سورة الأنعام
والظلم الجاهلي للمرأة
«١٣»

كانت لنا من قريب وقفة يسيرة مع المعلم القرآني في الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تبارك وتعالى بشأن المشركين في العصر الجاهلي وتفريقهم المخزي بين الذكور والإناث في بعض المطاعم مما رزقهم الله ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

وقد رأينا بعض الروايات التي تكشف عما عنت الآية الكريمة من الأنعام المقصودة، والمراد بما في بطونها، وكان من ذلك ما روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ الآية فهو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك، وهنالك رواية عن مجاهد حدّدت المقصود من الأنعام في الآية وأنه البحيرة والسائبة.

على أية حال: الآية صريحة في الدلالة على هذا الظلم الجاهلي، الذي يكشف عن نظرة هابطة إلى المرأة جعلت المشركين يسيؤون التصرف ويقولون هذه القولة التي تتنافى مع كرامة الإنسان ذكراً كان أو أنثى فضلاً عن هذا العنوان المخزي في التفريق.

أجل: الآية صريحة لا تقبل أي احتمال في أنهم كانوا يفعلون ذلك، ولا من ينكر ولا من يتمعّر وجهه ـ على الأقل ـ إشارة إلى عدم الرضى.

فنحن نقرأ بيان القرآن الساطع ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾.

ونقرأ بعد ذلك: ﴿وإن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾. انظر إلى ما أعطوه لأنفسهم من سلطة التحليل والتحريم ـ وهو أمر بالغ الخطورة ـ خالصة لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا. والحكم الآخر وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء. وأشد من هذا: إنهم يفترون على الله فينسبون تلك الأحكام إليه سبحانه.

والذي ما بد من التنويه به من خلال النظرة المستبصرة إلى ما يعنيه تنزل هذه الآيات الكريمات في تلك المرحلة من مراحل الدعوة.. الذي ما بد من التنويه به أن ألوان الأذى والفتنة التي كانت تنصبُّ على الفئة القليلة المؤمنة يومذاك: لم تكن حائلاً دون إشعار هذه الفئة بأن عقيدة التوحيد التي أكرمها الله بها، عنوان متسع الأبعاد عميق الدلالة على الإصلاح الجذري والتحويل الذي يتسع للإنسان والحياة.. فالآيات التي تنزل لاجتثاث الشرك من النفوس والدعوة إلى التدبر والتفكر وإحلال العقل مكانه اللائق من أجل الإيمان بالله... هذه الآيات تصحبها آيات كريمات أخر، تتعلق بإصلاح المجتمع بدءاً من الكشف عن المساوىء التي ولّدتها الوثنية والخرافة والخضوع لتسويلات الشياطين.

فالله تبارك وتعالى لا يرضى لعباده أن يمتهنوا المرأة ويقيموا هذا التفريق المشار إليه في الآية على صعيد الحل والحرمة، فطعام خالص للذكر محرم على الأزواج، وإن كان ما ولدت واحدةٌ من تلك الأنعام ميتةً، اشترك في أكلها الذكور والإناث. والله لا يرضى لعباده أن يفعلوا ذلك فضلاً عن أن يوغلوا في المساءة فيفتروا عليه جل شأنه زاعمين أن هذا التفريق في المعاملة بين الذكور والإناث من أحكامه جل وعلا، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى مهدداً متوعداً: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إنها المنهجية في البناء المتكامل للإنسان والمجتمع والحرص على أن يأخذ كل من الرجل والمرأة مكانه الطبيعي في بناء أسرة متماسكة قوية تكون لبنة صالحة في مجتمع متماسك قوي يقوده الإيمان وتملأ الشريعة السمحة ميادينه كلها بالخير والنماء وفي ظل عدالة مطلقة تتيح لكل من الرجل والمرأة أن يأخذ دوره في إحكام البناء، وفق أهليته التي أوجده الله عليها دون وكس ولا شطط.

البناء.. والمؤيدات القرآنية في مواجهة الظلم الاجتماعي

«١٤»

كانت لنا فيما سبق من القول: وقفات عند آية كريمة من سورة الأنعام وأعني بها الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة التي تشير فيما تشير إلى صورة جاهلية لتعامل المشركين مع المرأة، ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

واليوم أجد لزاماً أن أشير إلى مدى الارتباط الحكيم بين ما ختمت به الآية من الوعيد في قوله سبحانه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وبين مضمون الآية نفسها الذي جرت الإشارة إليه فيما سبق؛ وهو ما شرع المشركون لأنفسهم من حكم ظالم في التعامل مع المرأة، والتفريق بينها وبين الرجل في بعض الأطعمة مما يحصل عليه الناس من الأنعام، ثم افتراؤهم على الله بنسبتهم هذا الحكم إليه، وهو الحكم الذي يبدو بحق، معولاً من معاول الهدم لكيان الأسرة وبنيان المجتمع، وحائلاً دون أن تأخذ المرأة مكانها الطبيعي ــ في الأسرة والمجتمع ــ بطمأنينة وثقة كما أراد الله الحكيم الخبير.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ سيجزيهم قولهم على الله الكذب وافتراءهم عليه؛ فهو سبحانه قد خلق الخلق جميعهم ذكورهم وإناثهم في الأصل من نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام؛ فالمرأة والرجل يرتدان جميعاً إلى أصل واحد ذلكم قول الله تعالى في أول آية من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴿١﴾﴾.

فالمرأة شأنها شأن الرجل هي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها الله لتكون لآدم زوجاً، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً - كما اقتضت حكمته من طريق التناسل - فلا فارق في الأصل والفطرة، ولكن الفارق يبدو فيما وراء ذلك، إنه يبدو في الاستعداد والوظيفة. ومن هنا جاء اختلاف المرأة عن الرجل في بعض الأحكام.

ثم إن مما يؤكد فساد ما ذهب إليه المشركون في هذا الظلم الاجتماعي للمرأة كما كشفت الآية من صنيعهم، أن الله تعالى شاء بحكمته أن يكرم بني آدم بوصفهم بني آدم بصرف النظر عن كون الواحد منهم ذكراً أو أنثى، ففي سورة الإسراء نقرأ قول الله تعالى في الآية السبعين: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ وفي إشعار - للإنسان - ذكراً كان أو أنثى - بالمسؤولية كلٌ حسَب استعداده ووظيفته نقرأ في أعقاب ذلك قول الله جل شأنه: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١]. ومن هنا كانت المرأة صنو الرجل في أصل التكليف والمجازاة على العمل ودلائل هذه الحقيقة كثيرة في الكتاب والسنة من ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. الأمر الذي يدل بوضوح على المسؤولية التي أثمرها خطاب التكليف للرجل والمرأة جميعاً، وهي حقيقة قررها الكتاب العزيز بجلاء تام بدءاً من العهد المكي، وجاء تأكيدها في العهد المدني؛ فإذا كان الأمر كذلك على صعيد التكليف وحمل الأمانة عقيدة وعملاً وفيه ما فيه من تكريم المرأة، أفلا يكون صنيع الجاهليين غاية في السوء، حين ينزلون أزواجهم المنزلة غير اللائقة بوحدة الأصل، وما كرم الله به الإنسان بصرف النظر عن أي أمر آخر، وما جعل الأنثى في مستوى المسؤولية حسب استعدادها. وبهذا يبدو ما ختمت به الآية من قوله تعالى في شأن المشركين: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ على غاية التناسب مع مضمونها، سيجزيهم وصفهم أي قولهم الكذب على الله في تلك الصورة الجاهلية على ساحة

التعامل مع الأزواج. إنه حكيم في خلقه الذكر والأنثى من نفس واحدة. حكيم في شرعه ووضعه كلَّ أمر موضعه، عليم بما يصنع عباده فيجازيهم بأعمالهم. إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وما كان للمؤمنين اليوم وهم يتطلعون إلى مستقبل تتحقق فيه سلامة بنى المجتمع أن ينسوا هذه الحقيقة أو يتناسوها.. فقد حمَّل القرآن هذه الأمة أمةَ الشهادة على الناس أمانة القضاء على كل ما هو جاهليٌّ يتنافى مع الفطرة وسنة الله فيما خلق عليه الذكر والأنثى. وفي ذلك ما فيه من توفير الطاقات كلها وحفز الرجل والمرأة جميعاً إلى العمل المثمر المجدي وفق ما رسم المنهج الرباني لكل منهما والله لا يضيع عمل عامل من ذكرٍ أو أنثى بعضهم من بعض، وهو المحمود على كل حال.

بناء المجتمع.. وواحد من عوامل الهدم كما تصوره سورة الأنعام

«١٥»

أسعدنا ونحن نمضي في الكلام على خطاب التكليف للرجل والمرأة جميعاً قبس من عطاء المعلم القرآني فيما ختمت به الآية التاسعة والثلاثون بعد المئة من قول الله جل ثناؤه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ بعد قوله في صدر الآية بشأن صورة مؤذية للفرد والأسرة والمجتمع من صور الجاهلية عند المشركين مفتراة على الله ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾.

إن قول المشركين: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا، حيث تخصيص الذكور بحل اللبن من هذه الأنعام وما تلده حياً، وتحريم ذلك على الأزواج: قد كذب هؤلاء المشركون فيه على الله فزعموا أنه حكم من عنده سبحانه وتعالى. والإشارة إلى ذلك واضحة في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ أي حرّمه الله عليهم، وهذا الكذب الذي هو محض افتراء على الله ينطبق على الحكم الآخر الذي كشف عنه قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ إذا كان ما ولدته تلك الدابة من الأنعام ميتة اشترك في أكله الذكور والإناث جميعاً؛ إنهما قبيحتان؛ أولاهما الحكم بحل أكل الميتة، الثاني امتهان المرأة بأن جائزاً لها أن تشارك في أكل الميتة أما ما كان حياً فهو خاص بالذكور.. فكما تجاوزوا الحدود فحرموا ما أحل الله اختراعاً من عند أنفسهم وخضوعاً لما سولت لهم شياطينهم، كذلك افتروا عليه سبحانه فأسندوا إليه ما اخترعوا من حكم جائر...

ومن هنا جاء الوعيد ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ومن بلاغة القرآن أنه أتى بالسين التي هي للمستقبل القريب إيذاناً بفداحة ما أقدم عليه هؤلاء الضالون. سيجزيهم وصفهم، أي قولهم الكذب وإسنادهم إلى الله ما لم يأذن به ولا رضيه من الأحكام الظالمة الجائرة، التي تمتهن المرأة وقد كرمها الله، وتنغّص على الأسرة حياتها وهي اللبنة الأولى في المجتمع، التي إذا اضطرب حبل العلاقة فيها بين الرجل والمرأة ساءت أحوالها وانعكس ذلك على المجتمع نفسه في أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية. إنه حكيم عليم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، عليم بأعمال عباده من خير وشر، وهو سبحانه المنزه عن الظلم، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

وصورة الهدم في هذا الصنيع الجاهلي: تكمن في أنه عمل يعارض ما اقتضته حكمة الله من أن الرجل والمرأة جميعاً يرتدان ـ كما سلف قريباً ـ إلى أصل واحد من حيث الخلق والفطرة. وإن كانا يختلفان في الاستعداد والوظيفة.. وبناء على ذلك كانت المرأة في شرعة الإسلام صنو الرجل في خطاب التكليف، وتحمُّل المسؤولية، وما يكون من المثوبة أو العقاب. وما حصل من الاختلاف في الأحكام مردُّه إلى الاختلاف في الاستعداد كما شاء ربنا تبارك وتعالى وهو الحكيم العليم.

نقرأ في ذلك آيات كريمات في كلا العهدين المكي والمدني من ذلك ما جاء في سورة النحل وهي سورة مكية من قول الله تعالى في الآية السابعة والتسعين منها: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ وفي الآية الأربعين من سورة غافر وهي سورة مكية أيضاً نقرأ قول الله جل شأنه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

وإلى أن نلتقي على بعض مما تنزل في هذا الشأن في العهد المدني، لعل من الخير أن نشير إلى أن مقارنة يسيرة بين الذي قررته هاتان الآيتان الكريمتان من رفع المرأة إلى مستوى التكليف والمسؤولية والإسهام في توجيه حركة الحياة على قدر

استعدادها، وبين تلكم النظرة الجاهلية الهابطة التي تصل إلى أن تحرم عليها لوناً من المطعومات وتُتيح لها نوعاً آخر اشتراكاً مع الرجل في أكل الميتة.. لعل من الخير أن نشير إلى أن هذه المقارنة اليسيرة تضع أيدينا على واحد من عوامل الهدم عند المشركين في الجاهلية، وعلى واحد من مقومات البناء الذي حمل ثقل عبئه أولئك المؤمنون القلة منذ الحقبة الأولى في العهد المكي. وشتان بين وضع الأمور مواضعها، والإفادة من الطاقات والإمكانات عند كل من الرجل والمرأة، وبين تلكم النظرات الجاهلية التي تجفو الحقيقة وتسهم في تقويض المجتمع من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية... فلهذا نذكر هذه الحقيقة وأمثالها، كيما نأخذ الحذر في واقعنا، وكيما تربط أسباب أجيالنا بأسباب ذلك الجيل الذي حمل عبء البناء المكين على نهج يتواءم مع سنن الله في كونه العريض، ومنها ما خلق عليه كلاً من الرجل والمرأة في أحسن تقويم، وما أودع في كلٍ منهما من الأهلية، الأمر الذي يتحقَّق معه التكامل في توجيه حركة الحياة.

العناية بالفرد والمجتمع..
والوعيد على عوامل الهدم في سورة الأنعام
«١٦»

الوعيد في كتاب الله عز وجل على اقتراف أمر من الأمور: يؤكد سوء ذلك الأمر وأهمية الكشف عن إثارة القلوب والعقول لمحاصرته، ثم القضاء عليه، إقصاء له عن ساحة البناء التي يراد لها أن تكون سليمة القواعد مبرأة من عوامل الهدم والانحلال. وذلك ما رأينا في عدد من آي سورة الأنعام بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المئة وهي الآيات التي تولت الكشف عن عدد من الصور الجاهلية التي صنعها ما يجنيه المشركون من تصرفات، وادعاء أحكام في التحليل والتحريم تتعلق بالفرد والجماعة وترتبط ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر ببنى ذلك المجتمع الفكرية والاقتصادية والاجتماعية وهي أحكام لم يأذن بها الله، ولم يرض لهم بها ثم نسبوها إليه، فكان ذلك منهم محض الكذب والافتراء.

وأنت واجد أن كل آية تعرض للصورة الجاهلية: تختم بما يكشف عن المساءة التي تقترن بالتهديد والوعيد صراحة أو بالفحوى، كما في قوله تعالى في ختام الآيات والمشار إليها حسب تسلسلها العددي كما رأينا من قبل: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الأمر الذي يدل ـ كما أشرنا آنفاً ـ على أهمية القضاء على تلك المخازي لأنها مصدر إساءة للفرد والجماعة، وظاهرة مَرَضيَّةٌ لا يجني منها المجتمع إلا التخلف والانحسار عن العطاء.. وهذه اللبنة المضيئة من لبنات المنهج القرآني كانت ـ وستظل معلماً واضحاً على طريق المؤمنين الذين همهم بناء الفرد البناء السوي، وبناء المجتمع بعيداً

عن أوضار الجاهلية مهما كان لونها والعنوان الموضوع لها، وتنمية طاقاته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية على السنن الذي يرضي الله ورسوله. ويضمن للمؤمنين التمكين في الدنيا وفضل الله وإحسانه في الآخرة.

وقد كان آخر ما سعدنا بصحبته من تلك الآيات المنوه بها: الآيةَ التاسعة والثلاثين بعد المئة وهي قول الله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

وواضح أن ما توعد الله به المشركين بقوله في ختام الآية: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يتسق تمام الاتساق مع المضمون، في إطار الدلالة التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث. ثم إن مما يؤكد النقمة عليهم بسبب هذا الذي حكموا به في التعامل مفرقين بين الذكور والإناث: ما رأينا من قريب من مخالفة ذلك لما قرر القرآن الكريم من وحدة الأصل للرجل والمرأة جميعاً، وأنهما خلقا من نفس واحدة، وما نصت عليه الآيتان الكريمتان في سورتي النحل وغافر من وضع القرآن المرأة في مستوى خطاب التكليف والمسؤولية واستحقاق المثوبة على العمل أو العقاب.

وكما جاء ذلك في العهد المكي: نرى تأكيده بتفصيل في العهد المدني، المؤمنون يُغذون السير على طريق البناء، ورسول الله ﷺ لا يني ينمي فيهم حوافز العمل ويوجه الطاقات وجهتها المثمرة المنتجة في السلم والحرب، وتتنزل الآيات لتضع الرجل والمرأة كلاً في مكانه الطبيعي على مستوى الإسهام في عملية البناء الكبرى، وإزاحة الركام الجاهلي من الطريق، ومواجهة ما يكون من تحديات المشركين واليهود والمنافقين. ها نحن أولاء نقرأ في سورة آل عمران، بعد أدعية الله ورجاء فضله من مناجاة أولي الألباب.. نقرأ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

مرة أخرى.. مع بناء المجتمع..
والتنديد بالهدم الجاهلي
«١٧»

رحلة سورة الأنعام التي بدأناها باصطحاب الآية السادسة والثلاثين بعد المئة. وهي قول الله جل وعز: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

هذه الرحلة المباركة انتهت بنا إلى قوله تعالى في الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ وقد وقفنا المعلم القرآني في هذه الآية على ما يعنيه في عملية البناء الكبرى هذا التنديد بسوء التعامل مع المرأة والتوعد عليه توعداً لا يتحرك في إطار موعظة عابرة تتمدد على السطح لا تتجاوز إلى القاع، ولكنه أمر يتعلق بقضية جذرية هي موقع المرأة في توجيه حركة الحياة وبناء المجتمع حسب الاستعداد الذي كونها الله عليه؛ وأسوأ من هذا أن يسلك المشركون هذا المسلك المجافي للحقيقة التي لا يختلف عليها عاقلان. وهي أن البشر ـ ذكورهم وإناثهم ـ يرتدون إلى أصل واحد في الخلق والفطرة، وأن الله كرم بني آدم دون تفريق بين الذكر والأنثى، وخلق الإنسان في أحسن تقويم دون تفريق أيضاً، وجعل من المرأة مخلوقاً يخاطب بالعقيدة والشريعة وما ينبني على ذلك من المسؤولية والجزاء كما يخاطب الرجل، والاختلاف بينهما في بعض الأحكام مردُّه إلى الاستعداد والوظيفة، كما اقتضت حكمة الله في تكوين كل من الذكر والأنثى.

أقول: الأسوأ من هذا أن يسلكوا المسلك المشار إليه ثم ينسبوه إلى الله تعالى كذباً وافتراء ولذلك جاء الوعيد الذي كان ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد أسلمتنا الآية المنوّه بها إلى قول الله تباركت أسماؤه بعدها: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

قتلُ الأولاد سفهاً بغير علم: قد سبقت الإشارة إليه في الآية السابعة والثلاثين بعد المئة من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ أما تحريم ما رزق الله افتراء عليه فقد أشير إليه في مواطن عدة من تلكم الآيات المباركات أيضاً بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المئة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآية. ثم قوله سبحانه في الآية التي تلت: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾الآية والتحليل والتحريم المتعلقان بالذكور والإناث كنا بصدد الإشارة إليهما قبل قليل.

فالآية الكريمة هنا تقررأن الذين فعلوا هذه الأفاعيل قد خسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فخسروا أولادهم بقتلهم حيث أساءوا إلى أنفسهم وإلى أسرهم وإلى المجتمع، وكذلك ضيقوا على أنفسهم في الأموال التي رزقهم الله، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم وخصوا النساء ببعض المطاعم دون الرجال، ولا تسل عن الانعكاس السيء الذي يحصده المجتمع على المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي ناهيك عن دلالة ذلك كله على التخلف الفكري والحيلولة دون العقل ودون أن يأخذ مكانته الطبيعية عند الحكم وممارسة شؤون الحياة.

أما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم عليه.

هذا والحكم على صنيع المشركين بأنه خسران في الدنيا والآخرة: يُشعر المؤمنين في كل زمان ومكان، بأن عملية البناء التي أوقفوا عليها، يجب أن تصان دائماً عن العبث، ويُتخذ لها من الأسباب ما يجنبها عوامل الهدم التي هي نتاج سوءٍ للجاهلية، أياً كانت هذه الجاهلية، وأيَّ لبوسٍ لبست. والعاقل من أُري مواطن الاعتبار، فاعتبر!!.

بناء المجتمع.. وأثر التنديد بعوامل الهدم الجاهلي

«١٨»

سعدنا من قريب بقبس من عطاء المعلم القرآني في الآية الأربعين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. وهؤلاء الذين قتلوا أولادهم سَفهاً بغير علم قتلوا ذكورهم وإناثهم من إملاق أو خشية، كما قتلوا إناثهم وأداً في التراب خشية العار. وقد أشرنا فيما سبق من القول إلى الآيات المتعلقة بذلك في مواطنها من سورة الأنعام والنحل والإسراء والتكوير.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا يعني أن هنالك من يقتلون أولادهم سفهاً بعلم وأنهم يكونون غير خاسرين: فالآية تقرر ما كان واقعاً وهو أن هؤلاء المشركين أو بعضهم يقتلون أولادهم سفهاً بغير علم؛ فليس لديهم دليل يستندون إليه في هذا الصنيع. وفي ذلك ما فيه من الخسران في الدنيا والآخرة.

والحق أن هذه الظاهرة وما ذُكِّر به من تحريم ما رزق الله افتراء عليه: تشكلان عنصراً بالغ الخطورة في المساءة إلى الفرد والأسرة والمجتمع، لأن ذلك خسارة وإضرار لا يقتصران على الفرد، بل يتجاوزان إلى العلاقات الاجتماعية والطاقة الاقتصادية، والمسار الفكري على حد سواء.

على أن الخسران أيضاً ليس مقصوراً على الدنيا، ولكنه خسران في الآخرة أيضاً.

فإذا كان هؤلاء الضالون قد خسروا من الطاقة البشرية ما خسروا بقتل أولادهم، وخسروا من المال ما خسروا بالتضييق على أنفسهم وبالتعامل الظالم فيما أعطاهم الله من الرزق في الأنعام والزروع والثمار.. فقد وقعوا أيضاً في الخسران المبين في الآخرة، جزاء افترائهم على الله وكذبهم عليه بإسناد تلكم الأحكام الجائرة الظالمة إليه. وهم بهذا كله قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين.

ونقرأ في سورة النحل مزيداً من الإيضاح لهذه القضية وذلك بدءاً من قول الله تعالى في الآية الرابعة عشرة بعد المئة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾. تلا هذا البيان قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

والآن ما أحسب عاقلاً يماري في أن تأكيد المنهج الرباني أن هذا الصنيع من الجاهليين ــ بشتى صوره ــ جهل وانحراف خطير، لما يحمل من الأذى للفرد والجماعة، ويعرض للخسران في الدنيا والآخرة.. ما أحسب عاقلاً يماري في أن هذا التأكيد كان واحداً من المعالم البارزة على طريق المؤمنين، وهم يتحركون على طريق التغيير منذ العهد المكي، يقود خطاهم تحت راية البناء الشامل للإنسان والمجتمع محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وإليكم قبساً من فقه ابن عباس رضي الله عنه على هذه الساحة فقد روى البخاري بسنده إلى حبر الأمة رضي الله عنه قوله: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فإقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ ورواه ابن مردويه.

لقد دلهم القرآن على الأسباب، التي نمت وترعرت في ظل الوثنية والكفر، وجرَّت على الأسرة والمجتمع ما جرت، من المصاعب والمتاعب، كي يكونوا على بينة من أمرهم يُعدون العدة لبناء المجتمع الذي تقوده كلمة الله وتضبط شؤونه شرعة الحكيم الخبير!

حراسة بُنى المجتمع ومحاربة السفه في العدوان على الولد والمال سورتا الأنعام والتوبة

الآية الكريمة التي أسعدنا المعلم القرآني من قريب بلمحة مشرقة من عطائها: هي الآية الأربعون بعد المئة من سورة الأنعام والتي جاء فيها قول الله الحكيم الخبير: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا: أن هذه الآية الكريمة جاءت بعد آيات من السورة المباركة المشار إليها نعمنا بالتطواف في شيء من معانيها، وهي التي بدأت بالآية السادسة والثلاثين بعد المئة. وكان ظاهراً أنها تشير إلى صور جاهلية كلَّفت الفرد والجماعة الكثير من العناء، ووضعت المجتمع في موضع لا يغبط عليه في أي مجال من المجالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية. وكان واضحاً في تلكم الآيات التنديدُ بما ابتدعه المشركون من عند أنفسهم، وكما سوّل لهم الهوى والشيطان من أحكام في التحليل والتحريم على ساحة الرزق الذي تفضل الله به عليهم من الأنعام والزروع والثمار، وعلى ساحة العلاقة بالبنين والبنات من الذرية حيث يزهق البعض أرواح الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثاً خشية الجوع، أو من الجوع ـ على زعمهم ـ يصحب ذلك ظاهرة الوأد للبنات حيث يدس الواحد منهم فلذة كبده في التراب وهي على قيد الحياة، خشية العار، مع أن الكل راضٍ بما كان من انحراف أخلاقي يسود الكثير من جوانب المجتمع في علاقة الذكر والأنثى، الأمر الذي يمهد للانحراف، وبعد أن تقع الواقعة يلجؤون لعلم القيافة من أجل انتساب الولد وإلى أي رجل ينتسب من خلال ذلك الانحراف.

وبجانب الآيات الواردة في الموضوع والتي جاء الحديث عنها بالأسلوب الرباني الحكيم في مواطن متعددة من آي الكتاب أشرنا إليها فيما سبق.. جعل القرآن هنا في هذه الآية قتل الأولاد: سفهاً بغير علم.. والسفه في العربية: نقصٌ في العقل وأصله

الخِفَّةُ، قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم. إنه السفه الذي لا يدانيه سفه على هذه الساحة، وفي قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ استثارة للعقل في أن يتحرك ويعمل عمله، فبأي سلطان أو حجة يقتل الوالد ولده في دنيا هؤلاء الجاهليين؟.

وقتل الأولاد خسارة أيةُ خسارة على مستوى الأب والأم والأسرة، ومن وراء ذلك خسارة لطاقة قد تكون ذات فاعلية وتأثير في بناء المجتمع وتنمية قدرته على العطاء. والمشركون ـ كما خسروا بقتل أولادهم سفهاً بغير علم ـ قد خسروا من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية بما ضيقوا على أنفسهم في أموالهم، وجنحوا إلى ظلم الآخرين وامتهان الأزواج فيما ابتدعوا من التجليل والتحريم ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى﴾.

لقد كانت دعواهم أن تلكم الأحكام من عند الله: افتراء وكذبٌ على الله، وذلكم هو الضلال المبين، إنه مبين لشدة وضوحه فيما يشهد المرء من إقدامهم على الانحراف المنافي للعقل، وللعاطفة الصادقة، ناهيك عن مصلحة الفرد والمجتمع ودعواهم الإيمان بالله. ولقد أذكرنا هذا الحكم على صنيع الجاهليين بالافتراء والضلال آيات من سورة النحل كان منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾. إن الهداية والضلال هما المحور في البناء والهدم.

فالحرص على البناء السليم للإنسان والمجتمع وتوفير الطاقات الاقتصادية والاجتماعية من أجل استمرار البناء سليماً معافى، كل أولئك مرتبط بسلامة العقيدة، والهدمُ الذي كان يمارسه الجاهليون: امتدادٌ لتمرغهم في مستنقع الخرافة والتقليد الأعمى!!.

وعلى الرواد اليوم الذين أولاهم الله نعمة الإلهام في البناء والإنماء: أن ينصبوا هذه الحقيقة نصب أعينهم، فيزيدوا من تنمية الإيمان في النفوس، كيما ينعكس ذلك على مستوى البناء والإنماء بجدِّية وإحكام.